المخطوف

الصورة اياها :
عيون معصوبة، ايد مرتفعة، ورجال لا اصوات لهم.
ومنذ الأيام الأولى للحرب الأهلية بدأ سيل المخطوفين يتدفق الى الأقبية، وبدأ الموت وبدأت تقاليد الحواجز الطيارة.
ثم جاء السبت الأسود. وجاء الأسود الذي غطى عيون الجميع تقريبا.
واليوم، ماذا نقول للأمهات والزوجات المعتصمات في دار الفتوى، او التائهات في شوارع المدينة.
ماذا نستطيع ان نقول ونحن نستمع اليهن، وهن يخبرن الحكاية نفسها وهن ينتظرن ويذهبن من زعيم الى زعيم ومن زوجة الى زوجة وهن لا يعرفن شيئا عن رجال وفتيان ذهبوا ولم يعودوا.
فتى ذهب الى الفرن ولم يعد.
رجل مشى في الطريق ولم يعد.
رجال خطفوا من منازلهم. وذهبوا الى الظلام.
امرأة تقول انهم رأوا ابنها، صارت لحيته تطال الأرض، هناك في الأقبية، هناك قالوا لها وطلبوا مالا، دفعت ودفعت، ثم اختفى الوسيط واختفت لحية ابنها.
امرأة اخرى تروي ان يحفر الأنفاق، يأخذونهم للعمل قالت. يحفرون ويحفرون، وانا ادفع لهم. اتاني رجل منهم وطلب عشرة آلاف ليرة، دفعت ثم اختفى. وابني ما يزال في النفق يحفر ولا يطعمونه الا العدس.
وامرأة تجلس وحيدة ولا تحكي. اربعة ابناء قالت. اربعة ولم يعد لي احد !والحكايات لا تنتهي.
اجلس الى الأرض واستمع. لم اعد استطيع ان انظر في هذه العيون. فعيون النساء تلتمع بالحزن والحكايات تبدو قديمة من كثرة تكرارها، والأساطير تختلط بالأحلام، والحزن يتسع الى ما لا نهاية.
ونعرف، منذ سنة ونصف وهن يصرخن ولم يستمع اليهن احد. منذ سنة ونصف والمأساة تتدحرج في الشوارع ولا احد ينظر، لا احد.
ثم ماذا، تقول امرأة تجلس على الرصيف ؟
سمعنا الخطابات وصفقنا وبكينا. وماذا ؟ هل سيعثرون على الأولاد ؟
احاول ان اقول انني لا اعرف، لكنها لا تصدق ان الجميع لا يعرفون. لا تصدق اننا طالما نستطيع ان نكتب فلا بد ان نعرف، والا لماذا تكتبون ؟
صحيح لماذا نكتب ؟ ولماذا لا نعرف ؟
فنحن منذ بداية هذا الجنون، منذ ان نجحت الفاشية في قتل الروح عبر تحويل الآخرين الى طوائف، منذ اللحظة التي لم نجرؤ فيها على الخطأ بدأنا نتآكل.
نكتب لنروي الحكاية.
ولكن المرأة تسأل.
والمخطوف بعينيه المعصوبتين، بكلامه المرتجف، يقف وحيدا.
والقاتل ما يزال قادرا على القتل.
والطوائف ما تزال قادرة على التماسك.
والمخطوف وحيد في عزلته وفي موته.
وهذا العار يأكلنا قطعة قطعة.
كلنا مخطوفون في ارض يحكمها الوحش ويفترسها التآكل.
والمرأة ما تزال تروي حكايتها، تركض في شوارع المدينة وتصرخ !

الياس خوري